

2016

تجليات الحكاية في شعر عمر بن أبي ربيعة

أم.د. عباس عبيد كزار
الجامعة العراقية / كلية الآداب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/midad>



Part of the [Arts and Humanities Commons](#), and the [Law Commons](#)

Recommended Citation

"تجليات الحكاية في شعر عمر بن أبي ربيعة" (2016) عباس عبيد كزار, *Midad AL-Adab Refereed Quarterly Journal*: Vol. 12: Iss. 1, Article 5.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/midad/vol12/iss1/5>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Midad AL-Adab Refereed Quarterly Journal by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

تجليات الحكاية في شعر عمر بن أبي

أم.د. عباس عبيد كزار
الجامعة العراقية / كلية الآداب

الملخص

يُعدُّ ابن أبي ربيعة في طليعة شعراء الغزل في العصر الأمويّ الذي أوقف شعره على التغزل بالمرأة وتقدم المحيطين به من أمثال الأصوص والعرجي ووضاح اليمس وغيرهم لعلا لطبيعة البيئة التي نشأ فيها والتزلف الذي أحاق به وكثرة المال أدى به لعدم الالتفات إلى ما خاض فيه مجا يلون له من تزلف وتملق للخلفاء والولاة ووجهاء العصر بُغية الحصول على المال. سبر أغوار المرأة ورسم صورته من خلال هذه الرؤية، فبنى حكاياته، ونقصد بها هنا حكايات النساء المسكوت عنها، ففضح تفكير المرأة الحجازية وما تضرر وبما تحلم، وتلك جرأة تسجل للشاعر، ففضح أحاديثهن بما يخفين فيها من فرح وحزن، ولاشك في أنّه شاعر خاض غمار التقاطع مع ما هو سائد من رؤية تقليدية ألفتها الأذن العربية في بناء النص، فالقديم لا يتقبل الوليد الجديد المندفع برويته بعد مخاض عسير، لا يريد أن يؤمن بذلك، فيبدأ الصراع، ويعتمد البقاء على قوة الوليد الجديد، لقد استطاع الشاعر أن يرسم ملامح تجربته مما دفع بشاعر كبير مثل جرير ليقول: "ما زال يهذي حتى قال الشّعْر"

Abstract

Ibn Rabeea is defined as the top love poet in Umayyad era. He stopped writing love poetry with reference to woman and his surrounding peers like AL-Ahwas, AL-Arji and Wadhah AL-Yemen surpassed him. So, this might be attributed to the environment where was brought up, luxury and richness led him not to take into account what others came across because some poets flattered rulers, leaders and pioneers of the era to get money.

Moreover, he gave an in-depth insight into women through this vision, he wrote his stories, it means that he unveiled women untold stories. So, he exposed Hijazi woman thought, her hidden secrets and her dreams. This boldness is attributed to the poet whose name is mentioned above; he disclosed what they hide in their conversations such as their happiness and sadness. Undoubtedly, he came across huge difficulties because his works were against mainstream approach which is based on traditional style in drafting

the text. The old-fashioned does not accept the newly born motivated one following tough ordeal. It does not want to believe in it. Therefore, the struggle will be started.

Furthermore, the survival depends on the strength of the new-born. Finally, the poet managed to draw the glances of his own experiences which motivated great poet like Jareer to say "He is still narrating verses even in hallucination"

μ

لا شك في أن الموضوع سينصب على دراسة السياق النصي في شعر عمر بن أبي ربيعة⁽¹⁾، لنقف على الجوانب الفنية والجمالية (الاستيطيقية) التي انصب عليها شعره وانماز من غيره من شعراء الغزل، وكيف استثمر الحكاية في بناء النص، ندرك جيداً أهمية العنوان في النظرة الأولى للمتلقي وما يترك ذلك من أثر نفسي عليه بل قد يذهب بعيداً في تأمله في البحث عن مغزى العنوان .

يُعدُّ ابن أبي ربيعة في طليعة شعراء الغزل في العصر الأموي الذي أوقف شعره على التغزل بالمرأة وتقدم المحيطين به من أمثال الأحوص والعرجي ووضاح اليمن وغيرهم، لعلَّ لطبيعة البيئة التي نشأ فيها والتزلف الذي أحاق به وكثرة المال أدى به لعدم الالتفات إلى ما خاض فيه مجاً يلون له من تزلف وتملق للخلفاء والولاة ووجهاء العصر بُغية الحصول على المال.

سبر أغوار المرأة ورسم صورته من خلال هذه الرؤية، فبنى حكاياته، ونقصد بها هنا حكايات النساء المسكوت عنها، ففضح تفكير المرأة الحجازية وما تضرمر وبما تحلم، وتلك جراً تسجل للشاعر، ففضح أحاديثهن بما يخفين فيها من فرح وحزن، ولاشك في أنه شاعر خاض غمار التقاطع مع ما هو سائد من رؤية تقليدية ألقتها الأذن العربية في بناء النص، فالقديم لا يتقبل الوليد الجديد المندفع برويته بعد مخاض عسير، لا يريد أن يؤمن بذلك، فيبدأ الصراع، ويعتمد البقاء على قوة الوليد الجديد، لقد استطاع الشاعر أن يرسم ملامح تجربته مما دفع بشاعر كبير مثل جرير ليقول: "ما زال يهذي حتى قال الشعر"⁽²⁾، وقف النقد القديم ومجايلون له موقفاً من الشاعر أخذ مع تقدم الزمن وتقدم تجربته وقوة بنائه أن يحظى بمكانة مهمة في تاريخ الشعر العربي ولاسيما العصر الأموي منه ولعلَّ السبب الكامن وراء ذلك أن الشاعر نهج نهجاً انماز به من كثير من الشعراء، يصف ذلك الحرمي ابن أبي العلاء، وهو من شيوخ أبي الفرج الأصفهاني حين يقابل بين لامية عمر ولامية جميل، إذ يقول: "لو أنَّ جميلاً خاطب في قصيدته مخاطبة عمر لأرتج عليه وعثر كلامه به"⁽³⁾، إذ برزت فيه رؤيته الشخصية في بناء النص من هنا جاء أن يأخذ عمر مكانته بين شعراء العربية، على الرغم من اتكائه على ألفاظ سهلة في جلِّ قصائده لكن النقاد وجدوا في شعره فصاحة تدل على مقدرة لغوية مستمدة من البيئة الحجازية، فضلاً عن اعتماده تراكيب فنية بلاغية كبيرة المغزى والمعنى، التفت الشاعر إلى أهمية المعنى في بناء النص لشد المتلقي لحكاياته، هذا الميل الواضح في اعتماد المعنى على حساب اللفظ ولاسيما في الحوارات التي دارت بين صوحيباته التي نقلها في الوقت نفسه على علاتها، وآرانا لانتفق مع ماذهب إليه الأستاذ جورج غريب في كتابه الموسوم "الغزل تاريخه وأعلامه" بأنَّ الشاعر عمر بن أبي ربيعة لم يكن الحوار شأنه في بناء النص⁽⁴⁾، ممن اشتغلوا في موضوعه الغزل، انصب هم الشاعر في بناء قصائده على حكايات انفراد بها وراح يرسمها بشكل لوحات جميلة يجسد فيها شوقه وولعه بمن يحب، وقد تقاطع مع الشاعر الجاهلي هنا ؛ لأنَّ الشاعر الجاهلي كان ينظر لحكاياته الغزلية بوصفها جزءاً من منظومة بناء النص وتقليديته المعروفة، وسنقف أمام حكاياته لنرى كيف ركب الشاعر موجة بناء النص الحكائي بلغة سهلة تفرد بها عن سابقه ومجايله، لعلَّ لطبيعة الموضوع التي يخوض فيها، كان يرسم بريشة فنان مقتدر، تبني رؤية أراد لها الخلود، فالديوان يعج بقصائده التي خرجت من تحت عباءة الحوار لتصل إلى ذهن المتلقي وتخرق شغاف قلبه .

وقفت كثيراً عند الدراسات التي دارت حول موضوعه ولع الشاعر بالمرأة وكيف رسم صورتها، نحن لا نهرب هنا من هذا الموقف بل سنقف لتتخذ منه مخرجاً للوصول إلى حيثيات تلك الحكاية التي رسمها ابن ربيعة بنفس المعشوق، ف"عمر أول من أختص بفن شعري واحد، وجعل الحوار والقصص من مقوماته في ذلك على أمير شعراء الجاهلية"⁽⁵⁾ .

سأخذ من المنهج التكاملي في هذه الدراسة طريقاً لاستبانة الجانب الفني في حكايات عمر بن أبي ربيعة وموقفه من المرأة ومدى تمكنه من وصول الصورة إلى المتلقي، لأننا لا نريد من بحثنا أن

ينصب على علاقات الشاعر بالنساء بقدر ما نريد إيصال فكرة عن قوة إدارته لتلك الحوارات على وفق إطار فني، يحمل الإبداع والقدرة الفنية .

لعل ابن ربيعة تجاوز الشعراء بابتكاره نمطاً جديداً في تصوير العلاقة بين الرجل والمرأة(6)، وتجاوز شعراء الغزل في صورهم التي انساقَت وراء الأعراف والتقاليد الموروثة في النظر إلى المرأة، وقد عبر الشاعر إلى فضاء مفتوح بعيداً عن المغاليق التي كبلت بها ذاكرة الشاعر العربي، لا تتفق مع الشاعر ابن أبي ربيعة في كونه قد خرق قانون العلاقة التي رُسمت بين الرجل والمرأة وبدا كأنه أكثر جرأة في رسم صورتها وهي قادمة لأداء مناسك الحج، فهتك بذلك سترها واساء لها ليجسد في تلك الحكايات فحولة رجل مرفه لا يعرف سوى اللهو ومغازلة النساء وقد اتخذ من ذلك مهنة، وعده النقاد رأس المدرسة الحسية في الشعر العربي، "إنه أصدق مثال للعصر وللبيئة اللذين كان يعيش فيهما، وإن المؤرخ الذي يريد أن يدرس حياة الارستقراطية القرشية في الحجاز أثناء القرن الأول للهجرة يجب أن يلتمس هذه الحياة في شعر عمر بن أبي ربيعة قبل أن يلتمسها في أخبار التاريخ وحوادثه المختلفة"(7).

مسرد الحكاية في شعره

انمازت القصيدة القصصية بصفاتها جنساً أدبياً له معايير التي ينتمي إليها، فضلاً عن اتكائه على البنى السردية لغرض شعري واضح المعالم، فكان ابن أبي ربيعة يمثل المثال الأرقى لهذا التصور، استثمر الشاعر في بناء قصائده التي افطر فيها بالحكاية والغنائية، التي أدهش المتلقي بها وقتها من خلال حضورها البهي من اعتماده الحكاية مستثمراً قدرتها على امتلاك التشويق على وفق مشاهد حركية وتداخل شخصياتها في مكان محدد ترسم فيه أحداثاً مهمة يصنعها الشاعر المبدع، يقول :

حَدَّثَ حَدِيثَ فَتَاةٍ حَيٍّ مَرَّةً
قَالَتْ لِحَارَتِهَا (عِشَاءً) إِذْ رَأَتْ
فِي رَوْضَةٍ يَمْنَنُهَا مَوْلِيَّةٌ
فِي ظِلِّ دَانِيَةِ الْغُصُونِ وَرِيقَةٍ
وَكأنْ رِيقَتُهَا صَبِيرُ غَمَامَةٍ
لَيْتَ الْمُغِيرِي الْعَشِيَّةَ أَسْعَفَتْ
إِذْ غَابَ عَنَّا مَنْ نَخَافُ وَطَاوَعَتْ
قُلْتُ ارْكَبُوا نَزْرَ التِّي زَعَمْتَ لَنَا
بَيْنَا نَسِيرُ رَأَتْ سَمَامَةً مُوَكَّبَ
قَالَتْ لِحَارَتِهَا انْظُرِي هَا مَنْ أُولَى
قَالَتْ أَبُو الْخَطَّابِ أَعْرِفْ زِيَّهَ
قَالَتْ وَهَلْ؟ قَالَتْ نَعَمْ فَاسْتَبْشِرِي
قَالَتْ لَقَدْ جَاءَتْ إِذَا أَمْنِيَّتِي
مَا كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَلِمَ بَارِضُنَا
فَإِذَا الْمُتَى قَدْ قَرَّبَتْ بِلِقَائِهِ
لَمَّا تَوَاقَفْنَا وَحِينُنَا هُمَا
قُلْنَ انْزِلُوا فَتَيَّمَمُوا لِمَطْيَكُم
إِنْ تَنْظُرُوا الْيَوْمَ النَّوَاءَ بَارِضُنَا
غَجْنَا مَطَايَا قَدْ عَيْنَ وَعَوْدَتْ
حَتَّى إِذَا أَمِنَ الرَّقِيبُ وَتَوَمَّتْ
خَرَجَتْ تَأْطُرُ فِي ثَلَاثِ كَالْدُمَى
جَاءَ الْبَشِيرُ بِأَنَّهَا قَدْ أَقْبَلَتْ

بِالْجَزْعِ بَيْنَ أَذَاخِرِ وَخَرَاءِ
نَزَرَهُ الْمَكَانَ وَغَيْبَةَ الْأَعْدَاءِ
مِنْ ثَاءِ رَابِيَةٍ بَعِيدَ سَمَاءِ
نَبَتْ بِأَبْطَحِ طَيِّبِ الثَّرِيَاءِ
بَرَدَتْ عَلَى صَحْوٍ بَعِيدَ ضَحَاءِ
دَارٍ بِهِ لِنَقَارِبِ الْأَهْوَاءِ
أَرْضُ لَنَا بِلَذَاذَةٍ وَخَلَاءِ
أَنْ لَا نُبَالِيهَا كَبِيرَ بَلَاءِ
رَفَعُوا ذَمِيلَ الْعَيْسِ بِالصَّخْرَاءِ
وَتَأْمَلِي مَنْ رَاكِبِ الْأَدْمَاءِ
وَرَكُوبِهِ لَا شَكَّ غَيْرَ مَرَاءِ
مِمَّنْ يُحِبُّ لِقَائِهِ بِلِقَاءِ
فِي غَيْرِ تَكْلُفَةٍ وَغَيْرِ عَنَاءِ
إِلَّا تَمَنَّتْهُ كَبِيرَ رَجَاءِ
وَأَجَابَ فِي سِرِّ لَنَا وَخَلَاءِ
رَدَّتْ تَحِيَّتَنَا عَلَى اسْتِحْيَاءِ
غَيْباً تُغَيِّبُهُ إِلَى الْإِمْسَاءِ
فَعَدَّ لَكُمْ زَهْنَ بَحْسَنِ ثَوَاءِ
أَلَا يَرْمُنْ تَرَعَمًا بِرَغَاءِ
عَنَّا عِيُونُ سَوَاهِرِ الْأَعْدَاءِ
تَمْشِي كَمْشِي الظُّبَيْةِ الْأَدْمَاءِ
رِيحٌ لَهَا أَرْجٌ بِكُلِّ فُضَاءِ

قَالَتْ لِرَبِّي الشُّكْرُ هَذِي لَيْلَةٌ نَذراً أَدِيهِ لَهُ بِوَفَاءِ (8)

الذي يعني البحث هنا مدى حضور الحكاية وتقنياتها ورسائلها التعبيرية، ومدى مقدرة الشاعر على استعمالها، إذ اتخذت مظهراً سردياً انصهر في بنية النص، ولا بد لنا هنا أن نقف عند رؤية مهمة في النص الذي اجترحه ابن أبي ربيعة وبناه بشكل فني جميل معتمداً الحكاية وسيلة للوصول إلى المتلقي، فقد سما الشاعر بقصائده التي اتكأت على الحكاية إلى غاية شعريّة لا تخرج عن سياق البناء الفني للقصيدة العربيّة التي ألفتها الأذن العربيّة وعشقها، واستعمل شيئاً من معطيات السرد فاتكأ على الحكاية بوصفها تمثل حدثاً من خلال تطوّره الزمني وعلاقاته السببيّة، فكانت قصائده مبهره، يقول :

قَالَتْ لِاتْرَابِ نَوَاعِمِ حَوْلَهَا بَيْضُ الْوُجُوهِ خَرَائِدٍ مِثْلِ الدُّمَى
بِاللَّهِ رَبِّ مُحَمَّدٍ كَدِّتْنِي حَقّاً أَمَا تَعْجَبْنَ مِنْ هَذَا الْفَتَى
أَلْدَاخِلِ الْبَيْتِ الشَّدِيدِ حَبَابُهُ فِي غَيْرِ مِيعَادٍ أَمَا يَخْشَى الرَّدَى
فَأَجَبْتُهَا إِنَّ الْمُحِبَّ مُعَوِّدٌ بِلِقَاءِ مَنْ يَهْوَى وَإِنْ خَافَ الْعِدَى
فَقَعِمْتُ بِالْأُذُنِ إِذْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ وَسَقَطْتُ مِنْهَا حَيْثُ جُنْتُ عَلَى هَوَى
بَيْضَاءُ مِثْلُ الشَّمْسِ جِئْنَ طُلُوعَهَا مَوْسُومَةً بِالْحُسْنِ تُعْجِبُ مَنْ رَأَى (9)

كان استلهاام الشاعر للحكاية مع محبوبته التي نظمها شعراً، قامت على الحوار والسرد، وقد ابداع الشاعر ايما ابداع في إدارة هذا الحوار، وجدناه قد افاد من الحكاية ويمكن عدّ هذه الحكاية قصة قصيرة، إذ ينجلي البناء القصصي من خلال رسم شخصياتها وحواراتها .
إن طرائق صوغه السردى لكثير من حكاياته على الرغم من تداخلها النصي في بنية الشعر ودوبانها فيه، ظلت أسيرة البساطة، لاسيّما فيما يتعلق بالبناء الزمني وشخصيات الشاعر وإنماط السرد ومظاهره .يقول:

بَرَزْتُ بَيْنَ ثَلَاثِ كَالْمَهَا تَقَرُّو الصَّرِيمَا
قَمَرٍ، بَذَرٍ، تَبْدَى بَاهِراً يُغْشِي النُّجُومَا
قُلْتُ: أَهْلًا بِكُمْ، مِنْ زُورٍ زُرْنَ كَرِيمَا
فَأَذَاقْتَنِي لَذِيذاً خَلَّتُهُ رَاِحاً خَتِيمَا
شَابَهُ شَهْدٌ وَتَلَجَّ نَقَعاً قَلْباً كَلِيمَا
ثُمَّ أَبَدْتُ، إِذْ سَلَبْتُ الـ مِرْطَ، مُبِيضاً هَضِيمَا
فَلَهُوْنَا اللَّيْلَ حَتَّى هَجَمَ الصُّبْحُ هُجُومَا
قَمْنٍ بُرْجَيْنِ غَزَالَا فَتَرَ الطَّرْفَ، رَحِيمَا
وَلَقَدْ قَضَيْتُ حَا جَا تِي، وَلَاقَيْتُ النَّعِيمَا (10)

استمدت القصيدة مداها و ألقها الفني والجمالي من ترابط أمور عديدة، فقد انماز الشاعر بعاطفة جياشة تتضح في بنائه الفني من خلال صوره التي رسم ملامح شخصها بإحساس رسام مرهف الحس، فضلاً عن امتلاك الشاعر لأدواته لا سيّما اللغة منها والتي انمازت بالثراء، فضلاً عن انزياحاتها ومجازاتها التي اتخذت من تقنيات السرد معبراً للوصول للمتلقي.

نلاحظ على قصائد الشاعر ميلاً واضحاً إلى المحافظة على سياق يعتمده في لغة الخطاب السردى، إذا يعتمد منهج الراوي المتماهي بمرويّه، فاتكأ الشاعر على ضمير المتكلم واتخاذ وضعيّة الراوي ؛ لأنه يدرك جيداً بأنّه عن طريق هذا الاستدلال سيصل إلى مبتغاه، يتمثل بقوة إقناع المتلقي لذلك وجدناه يبتعد كثيراً في بناء نصه عن طريق تنوع الضمائر في خطابه السردى واتكائه على ضمير المتكلم، وعند مفاتشتنا للنص، نكتشف أنّ الشاعر حينما لجأ إلى هذا الضمير وأقصد به ضمير المتكلم، إنّما جاء ليعبر عن إحساسه الداخلي ومقدار وجعه وعشقه وألمه في تصوير ذات مولعة بالعشق والنساء، يقدم صورة أكثر من مقنعة للمتلقي بمدى ما يؤمن به، ونحن حين نتبع الإيقاع السردى للنص نجده إيقاعاً يتوافق مع الرؤية الثقافية للدارسين، إذ اعتمد الحوار الهادئ، يقول:

قَفِي فَاَنْظُرِي أَسْمَاءُ هَلْ تَعْرِفِينَهُ أ هَذَا الْمُغِيرِيُّ الَّذِي كَانَ يُذَكِّرُ

أَهَذَا الَّذِي أَطْرَيْتِ نَعْمًا فَلَمْ أَكُنْ
فَقَالَتْ: نَعَمْ لَا شَكَّ غَيْرَ لَوْنِهِ
لَنْ كَانَ إِيَّاهُ لَقَدْ خَالَ بَعْدَنَا
رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ
أَخَا سَفَرٍ جَوَابَ أَرْضٍ تَقَادَفَتْ
قَلِيلٌ عَلَى ظَهْرِ الْمَطِيَّةِ ظِلُّهُ
وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ
وَوَالِ كَفَاهَا كُلَّ شَيْءٍ يَهْمُهَا
وَلَيْلَةٌ ذِي دُورَانٍ جَشْمَتِي السُّرَى
فَبِتْ رَقِيبًا لِلرِّفَاقِ عَلَى شِفَا
إِلَيْهِمْ مَتَى يَسْتَمَكِّنُ النَّوْمُ مِنْهُمْ
وَبَاتَتْ قُلُوصِي بِالْعَرَاءِ وَرَحَلُهَا
وَبِتْ أَنَا جِي النَّفْسِ أَيْنَ خِيَاوُهَا
فَدَلَّ عَلَيْهَا الْقَلْبُ رِيًّا عَرَفَتْهَا
فَلَمَّا فَقَدْتُ الصَّوْتَ مِنْهُمْ وَأُطْفَنْتُ
وَعَابَ قَمِيرُ كُنْتُ أَهْوَى غُيُوبَهُ
وَحَقَّقْتُ عَنِّي الصَّوْتَ أَقْبَلْتُ مَشْيَةً أَلْ
فَحَيَّيْتُ إِذْ فَاجَأَتْهَا فَتَوَلَّاهُتْ
وَقَالَتْ وَعَضَّتْ بِالْبَنَانِ فَضَحْتِي
أَرَيْتُكَ إِذْ هُنَا عَلَيْكَ أَلَمْ تَخَفْ
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَنْعَجِيلُ حَاجَةٍ
فَقُلْتُ لَهَا: بَلْ قَادَنِي الشَّوْقُ وَالْهَوَى
فَقَالَتْ: وَقَدْ لَانَتْ وَأَفْرَخَ رَوْعُهَا
فَأَنْتِ أَبَا الْخُطَابِ غَيْرُ مُدَافِعِ
فَبِتْ قَرِيرَ الْعَيْنِ أَعْطَيْتِ حَاجَتِي
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصَرَ طَوْلُهُ
وَيَا لَكَ مِنْ مَلْهَى هُنَاكَ وَمَجْلِسِ
يَمِجْ ذِكِّي الْمِسْكَ مِنْهَا مُقْبِلُ
تَرَاهُ لَهُ إِذَا مَا افْتَرَّ عَنْهُ كَأَنَّهُ
وَتَرْنُو بِعَيْنَيْهَا إِلَيَّ كَمَا رَنَا
فَلَمْ تَقْضِ اللَّيْلُ إِلَّا أَقْلَهُ
أَشَارَتْ بَأَنَّ الْحَيَّ قَدْ حَانَ مِنْهُمْ
فَمَا رَاعَنِي إِلَّا مُنَادٍ تَرَحَّلُوا
فَلَمَّا رَأَتْ مَنْ قَدْ تَنَبَّهَ مِنْهُمْ
فَقُلْتُ: أَبَا دِيهِمْ فَايَا أَفْوَتْهُمْ
فَقَالَتْ أَتَحْقِيقًا لِمَا قَالَ كَاشِحُ
فَبَانَ كَانِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ فَغَيْرُهُ
أَقْصَى عَلَى أَخْتِي بَدْءَ حَدِيثِنَا
لَعَلَّهُمَا أَنْ تَطْلُبَا لَكَ مَخْرَجًا

وَعَيْشِكَ أَنْسَاهُ إِلَى يَوْمٍ أَقْبَرُ
سَرَى اللَّيْلِ، يُحْيِي نَصَّهُ، وَالنَّهْجُ
عَنِ الْعَهْدِ وَالْإِنْسَانُ قَدْ يَتَغَيَّرُ
فَيُضْحِي وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيُخَصَّرُ
بِهِ فَلَوَاتُ فَهُوَ أَشْعَثُ أَغْبَرُ
سِوَى مَا نَفَى عَنْهُ الرِّدَاءُ الْمُحْبَرُ
وَرِيَانٌ مُلْتَفٌّ الْحَذَانُ أَخْضَرُ
فَلَيْسَتْ لِشَيْءٍ آخِرَ اللَّيْلِ تَسْهَرُ
وَقَدْ يَجْشُمُ الْهَوْلُ الْمُحِبَّ الْمُعْزَرُ
أَحَادِرُ مِنْهُمْ مَنْ يَطُوفُ وَأَنْظَرُ
وَلِي مَجْلِسُ لَوْلَا اللَّبَانَةُ أَوْعُرُ
لِطَارِقِ لَيْلٍ أَوْ لِمَنْ جَاءَ مُعْزَرُ
وَكَيْفَ لِمَا أَتَى مِنَ الْأَمْرِ مَصْدَرُ
لَهَا وَهَوَى النَّفْسِ الَّذِي كَادَ يَظْهَرُ
مَصَابِيحُ شَبَّتْ بِالْعِشَاءِ وَأَنْوَرُ
وَرَوْحُ رَغِيَانٍ وَنَوْمٌ سُمُرُ
حُبَابٍ وَشَخْصِي خَشْيَةِ الْحَيِّ أَزُورُ
وَكَادَتْ بِمُخْفُوضِ التَّحِيَّةِ تَجْهَرُ
وَأَنْتِ أَمْرُ مَيْسُورٍ أَمْرُكَ أَعْسَرُ
وَقَبِيتُ وَحَوْلِي مِنْ غَدُوكَ خَضَرُ
سَرَتْ بِكَ أَمْ قَدْ نَامَ مَنْ كُنْتُ تَحْدُرُ
إِلَيْكَ وَمَا نَفْسٌ مِنَ النَّاسِ تَشْعُرُ
كَلَّاكَ بِحِفْظِ رَبِّكَ الْمُتَكَبِّرُ
عَلَيَّ أَمِيرُ مَا مَكْنَتُ مُؤَمَّرُ
أَقْبَلُ فَاهَا فِي الْخِلَاءِ فَاكْثُرُ
وَمَا كَانَ لَيْلِي قَبْلَ ذَلِكَ يَقْصُرُ
لَنَا لَمْ يَكْذِرْهُ عَلَيْنَا مُكَذِّرُ
نَقِيُّ الثَّنَائِيَا ذُو غُرُوبٍ مُؤَشِّرُ
حَصَى بَرْدٍ أَوْ أَقْحَوَانٍ مُنُورُ
إِلَى ظَبْيَةٍ وَسَطِ الْخَمِيلَةِ جُودُرُ
وَكَادَتْ تَوَالِي نَجْمِهِ تَتَغَوَّرُ
هُيُوبُ وَلَكِنْ مَوْعِدُ مِنْكَ عَزُورُ
وَقَدْ لَاحَ مَعْرُوفٍ مِنَ الصُّبْحِ أَشْفَرُ
وَأَيْقَاطُهُمْ، قَالَتْ: أَشَرُ كَيْفَ تَأْمُرُ
وَمَا يَنَالُ السَّيْفُ ثَارًا فَيَنْتَارُ
عَلَيْنَا وَتَصْدِيقًا لِمَا كَانَ يُؤْتَرُ
مِنَ الْأَمْرِ أَذْنَى لِلْخَفَاءِ وَأَسْتَرُ
وَمَا لِي مِنْ أَنْ تَعْلَمَا مُتَأَخَّرُ
وَأَنْ تَرْخَبَا سَرِبًا بِمَا كُنْتُ أَحْصُرُ

مِنَ الْخُزْنِ تُذْزِي غَبْرَةً تَحْدَرُ
كِسَافَانِ مِنْ خَزَرٍ دِمَقْسٍ وَأَخْضَرُ
أَتَى زَابِرًا وَالْأَمْرُ لِلْأَمْرِ يَقْدَرُ
أَقْلِي عَلَيْكَ النَّوْمُ فَأَلْخَطُبُ أَيْسَرُ
وَيَذْزِي، وَهَذَا الْبُرْدُ إِنْ كَانَ يَحْدَرُ
فَلَا سِرُّنَا يَفْشُو وَلَا هُوَ يَظْهَرُ
ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ وَمُضْضَرُ
أَلَمْ تَتَّقِ الْأَعْدَاءَ وَاللَّيْلَ مُقْمِرُ
أَمَا تَسْتَجِي أَوْ تَرَعُوِي أَوْ تَفْكَرُ
لِكَيْ يَحْسِبُوا أَنَّ الْهَوَى حَيْثُ تَنْظُرُ
وَلَا حَ لَهَا خَدَّ نَقِيٍّ وَمَحْجَرُ
لَهَا وَالْعِتَاقُ الْأَرْحِيَّاتُ تُزْجَرُ(11)

فَقَامَتْ كَنِيْبًا لَيْسَ فِي وَجْهَهَا دَمٌ
فَقَامَتْ إِلَيْهَا حُرَّتَانِ عَلَيْهِمَا
فَقَالَتْ لِأَخْتَيْهَا: أَعَيْنَا عَلَى فَنِّي
فَأَقْبَلَتَا، فَارْتَاعَتَا، ثُمَّ قَالَتَا:
فَقَالَتْ لَهَا الصُّغْرَى: سَاعِطِيهِ مِطْرَفِي
يَقُومُ فَيَمُشِي بَيْنَنَا مُتَّكِرًا
فَكَانَ مَجْتَبِي دُونَ كُنْتُ أَتَّقِي
فَلَمَّا أَجْرْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ قَلْنَ لِي
وَقَلْنَ أَهَذَا دَأْبُكَ الدَّهْرُ سَادِرًا
إِذَا جُنْتَ فَاْمُنَحْ طَرْفَ عَيْنَيْكَ غَيْرِنَا
فَأَخَّرَ عَهْدِي لِي بِهَا جَيْنَ أَعْرَضْتُ
سِوَى أَنَّنِي قَدْ قُلْتُ، يَا نَعْمُ، قَوْلُهُ

لاشك في أنَّ الشَّعْرَ خلق فَنِّي (12)، ينفذ الشاعرُ من خلاله إلى المتلقي ليعبر عمَّا يدور في نفسه، والشَّعْرَ وظيفة طبيعية وأنَّ لازمه إعمال فكرٍ وجهد، وفي ديوانه قصائد كثيرة تسرد حكايات جميلة رسمها الشاعرُ تصويراً لما مرَّ به في مُعترك حياته اللاهية، فالشَّعْرُ إبداعٌ، نلاحظ ذلك على تلك القصائد وهي محملة بحكاياته، وقد انتخب ألفاظها وإيقاعاتها وموسيقاها، يركب صهوة حصان معتدٍ به لأنَّ القصيدة كانت هي التي يركن إليها لتهدأ روحه بما تمنحه إياه ؛ فالشَّاعر يخلق تجربته الشَّعورية من دون أن ينظر إلى نتائج هذه التجربة .

المكان والحكاية

ظلَّ الشَّاعرُ أسير الوصف والتشبيب في حوارهِ القصصي، تتنازع في داخله عفة وإباحية، وكان في كِلَا الحالين يقع تحت طائلة النشأة، ولعلَّه قد استمد ذلك من الشَّاعر القديم الذي أوجد أرضية صلبة لبناء النص عنده، ألم نجد المنخل البشكري(13) في معلقته يوحى لنا بهذا الفهم الذي أدركناه عبر حوارهِ القصصي، إذ يقول:

ولقد دخلتُ على الفتا
الكاعبِ الحسناءِ تر
دفعْتُهَا، فتدأعتُ
ولثمْتُهَا، فتتفست
ورنَّتْ وقالت: يامُنْحُ
ما مسَّ جسمي غيرُ حُبٍ

ةِ الْخَدْرِ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ
فُلٌ بِالْأَمْسِ وَالْحَرِيرِ
مَشْنِي الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ
كَتَنَفْسِ الظَّبْيِ الْبَهِيرِ
لُ هَلْ بِجِسْمِكَ مِنْ فَتُورِ
كُ فَاهْدِنِي عَنِّي وَسِيرِي(14)

إنَّ حكايات عمر بن أبي ربيعة إنما هي في كثير من الأحيان ظلٌّ لتجربة نفسية عاناها بعيداً عن الصنعة التي ألقتها بعض قصائد العربية لا سيما في الطللية المعروفة في تراث العرب الثقافي " ولايبعد الشَّاعرُ امرؤ القيس كثيراً في معلقته عن هذه الرؤية "(15).

الابتعاد عن الطللية التمسك بالحكاية

مظاهر حكايات ابن ربيعة في قصائده الغزلية، تبعد في بنائها عن الطللية التي ألقتها قصائد الجاهليين من وقوف على الأطلال والبكاء واستبكاء رفيق الرحلة، وأنَّ مرَّ عليها مرور العابرين بصفتها لازمة ألقتها الثقافة العربية في بناء النص (16)، إلا أنَّ الرحيل شكلاً هماً للشَّاعر في جلِّ حكاياته، فمثل الوجد الذي لا ينتهي في تلك اللحظات التي يودع فيها الحبيبة الراحلة عنصراً أساسياً في بناء مستهل الحكاية التي يروم إيصالها للمتلقي، فعلى الرغم من إحساسه وشعوره ببرجسية عالية، ظلَّ أسير بناء النص الجاهلي في هذا المظهر، ولكن الشَّاعر بين ملامح حكايته حينما يصل إلى وصف موقف الحبيبة الراحلة، يقول :

لِنَاي الدَّارِ مِنْ نَعْمٍ
وَمَلِّ مَمَرِّضِي سُقْمِي
وَيَخْلُو عِنْدَهَا صَرْمِي
تَجْرِيه، ابْنَةُ الْعَمِّ
دُمُوعاً وَكُفَّ السَّجْمِ
شَتِيتاً بَارِدَ الظِّلِّ
دَهْمَا، حَوْرَاءَ كَالرَّيْمِ
ذِي لَمْ يَكُنْ عَنْ اسْمِي
أَخْفَى بِي، وَلَمْ يَكُنْ
نَعْمٌ يُخْفِيهِ عَنْ عِلْمِ
مَنْ وَاشَ أَخِي إِثْمِ
فَحْيِي، بِاللَّهِ، عَنْ ظَلَمِي
أَرَقْتُ دَمِي بِلَا جُرْمٍ؟ (17)

أَرَقْتُ، وَابْنِي هَمِّي،
فَأَقْصَرَ عَاذِلٌ عَنِّي،
أُمُوتْ لِهَجْرَهَا حَزْناً،
فَيُنْسُ ثَوَابُ ذَاتِ الْوُدِّ
وَيَوْمَ الشَّرِّ قَدْ هَاجَتْ
غَدَاةٌ جَلَّتْ عَلَى عَجَلٍ
وَقَالَتْ لِفَتَاةٍ، عِنِّ
أَهْوُ، يَا أَخْتِ بِاللَّهِ، أَلْ
وَلَمْ يُجَازِنَا بِالْوُدِّ،
فَقَالَتْ رَجَعَ مَا قَالَتْ:
فَجِئْتُ فَقَالَتْ: صَبِّ ذَلَّ
وَقَدْ أَذْنَبْتُ ذَنْباً فَاص
فَقَالَتْ: لَا، فَقَالَتْ: فَلِمَ

ومهما اختلفت الأمثلة الحكائية التي طرحتها قصائده، فلابن ربيعة، في شعره، توقيت واضح، ترك الزمن أخطوئه في خرائط تلك القصائد، كان موفقاً في بناءه القصصي والتنتقل في حكايته مصوراً معاناته في تواصله مع تلك النسوة على اختلاف مشارب الحكاية وصدقها، فإذا نتبعنا قصائده، في مراحل مختلفة مرت بها شاعريته وأدركنا بأن أحاسيسه ومشاعره لم تكن متشابهة دائماً وإنما هي متغيرة جراء عوامل عديدة، فضلاً عن أن مزاج الشاعر قد ينتقل من حال إلى حال، قلقاً، مضطرباً، على ضوء تلك الحكايات ومدى تحقق مداها، لكنه ظل دائماً ذلك الشاعر التواق إلى اللقاءات الليلية الحميمة التي تجود بها صوحيباته وتستجيب إلى عطش لواعجه .

يفر الشاعر في لجة الحكاية العاتي التي يريد من خلالها وفي أجواء معاناتها، قيادة الحكاية بتعادل متزن، ليصبح في ذلك اللقاء أكثر بهاء وأقل حَزْناً ليعتبر للملتقي فرصة الشعور بانتمائه إلى هذا النمط من الشعر الذي جاء وليد بيئة تقاطعت مع موروث ثقافي جبلت عليه الثقافة العربية في بناء النص وقد تجاوز في ذلك معاصريه من الشعراء ،لقد بين ابن رشيقي: أن من الأدباء من يقول: الشعراء ثلاثة جاهلي وإسلامي وأموي ومولدي، ثم يقول: وهذا قول من يؤثر الأنفة وسهولة الكلام والقدرة على الصنعة والتجويد في فن واحد، أما الثلاثة الذي ذكرهم فهم المهلهل ابن ربيعة وعمر ابن أبي ربيعة وعباس بن الأحنف (18) ورسم لنفسه حدوداً على الرغم مما يمر به أحياناً من بأس تتقاطع فيه الأوقات العصبية في الانتظار صراع عاشه الشاعر بين الوعد في اللقاء والآتي وما يحمل من طعم تلهف له الروح، فكانت بداية الحكاية ومن هنا تبدأ مهمته في رسم ملامحها في إطار قصصي جميل، يدرك الشاعر أن صدى الحكاية أقوى من كل الأصوات، ترتسم عليه ملامح الخوف والقلق والشك وخيبة الأمل، حين يرى أن هذا اللقاء قاب قوسين أو أدنى .

الالتكاء على السرد

يمثل الشاعر في حكايته الشعرية التي تحمل لبوساً جديدة في الأدب العربي في الشعر الأموي موقفاً واضحاً في بناء النص، تفصح في الوقت نفسه عن روح درامية تتشبت بمحاور بناء الفن القصصي مع الآخر، وتضع اللبنة الأولى من الحكاية وبناء ملامحها في السرد الشعري العربي، ولعلها تعدُّ مثلاً أو صورة للمثال الذي استقاه ابن أبي ربيعة ونجح فيه إلى حد بعيد.

اعتمد الشاعر في رسم حكايته على ضمير المتكلم، كونه بطل الحكاية وقد روى لنا حكايته مع محبوبته معتمداً خيالاً واسعاً (ولا تقدم الأحداث إلا من زاوية نظر الراوي، فهو يخبر بها، ويعطيها تأويلاً معيناً يفرضه على القارئ، يدعو إلى الاعتقاد به) (19) ، تجلت الحكاية في ضوء ذلك عند ابن أبي ربيعة كونه قد قدم مثلاً يرتبط بحميمية الصورة التي رسمها، من هنا كانت شخصية الشاعر هي بؤرة النص، وبغية أن نكون واقعيين في قراءتنا للنص إذ لا يمكن أن نعدَّ رسم الحكاية بروية ضمير

المتكلم في غزله إذ لابد أن تتلاقح مجموعة من الانماط السردية الأدبية الأخرى كي تصل إلى ما يسمو إليه الشاعر.

وصف في حكاياته قصصاً حدثت لعل الخيال كان مرجعية أكثرها، والرواة أيضاً على الرغم من أنه كان مقتدراً في الإشارة إلى صوحيباته وأماكن الحدث ويمكن عدّه جزءاً من سيرته الذاتية، "هكذا نرى أن القصيدة / الحكاية تنقسم إلى قسمين كبيرين، يندرج كلٌ منهما في برنامج سردي مختلف" (20)، فيما تضمن من حكايات اعتمد فيها نمطاً أسلوبياً يتصف بالمباشرة، كان أغلب الحوار الذي أداره وتجلى في حكاياته العديدة المختلفة الاتجاهات، أحدث سرداً يمكن أن نطلق عليه (مونولوجاً) أي حواراً داخلياً ليكشف للمتلقى خفايا تلك اللقاءات الحميمة بل اعتمد صورة المرأة العاشقة المولهة بحبه، اعتمد أسلوباً بعيداً عن المباشرة، فيتخذ وسيلة للتقرب للمتلقى حينما يدع المرأة تتحدث عن أسرارها ولكن بصوته هو، من هنا رسم علاقة بينه وبين قارئ النص.

نقل الشاعر حكاياته للمتلقى مباشرة، لأنها لم تحدث أمام عين المتلقي وأتما من خلال ذلك الحوار الذي دار بين شخوص حكاياته من النسوة الحالمات باللقاء، لاشك في أنه كان يدرك أهمية الأثر الذي يحدثه في المتلقي من خلال رسم تلك الحكايات ومدى غموضها لأنه بالمقابل قد يكون للسلطان هنا هيبة متابعة من يخرج على الأعراف والتقاليد.

من هنا تجلّت الحكاية في قدرة الشاعر على إرسال رسائل للمتلقى أوضح فيها كثيراً من المسكوت عنه في العرف الاجتماعي، كان الحوار أثره الواضح وغلب على أكثر الحكايات في قصائده وقد اعتمد ضمير الغائب، من أمثلة ذلك قوله:

وَأَخْرَ عَهْدِي بِالرَّبَابِ مَقَالَهَا لَنَا، لَيْلَةَ الْبُطْحَاءِ، وَالْدَمْعُ يَسْجُمُ
طَرِبْتُ، وَطَاوَعْتُ الْوُشَاةَ، وَبَيَّتُ شَمَائِلَ مَنْ وَجِدْتُ، فَفِيمَ النَّجْرُمِ
هَلُمَّ فَأَخْبِرْنِي بِذَنْبِي أَعْتَرَفُ بِعُتْبَاكَ، أَوْ أَعْرِفْ إِذَا كَيْفَ أَصْرُمُ (21)

أخذت الشخصيات في حكايات ابن ربيعة تتجلى معالمها من خلال قدرته على التوصيف، فكانت أصواتهن المهموسة ودعواتهن الوجلة له، وعلاقة تلك النسوة ببعضهن ببعض قد رسمت بريشة فنان بارع، لأن اتكاء الشاعر على ذلك يمثل معالجة درامية؛ لأن تلك الشخصيات التي تحدث عنها كثيراً شكلن صورة طاغية على مشهد الحكاية من دون أن يشعر المتلقي بأن تلك الشخصيات قد اقحمت أحياناً إقحاماً جلياً بُغية إتمام المشهد، فرسم خوفهن، رغبتهن الجامحة، للوقوف على ذروة المشهد الأخير حينما يلتقي مع محبوبته التي بدورها تطلب من الأخريات أن يمنحها فرصة إشباع رغبته من هذا اللقاء الحميم الذي جازفن من أجله وتحملن وواجهن قيوداً كانت شائعة في المجتمع وتعدّ جزءاً مهماً في ثقافة بنائه الاجتماعي، مثلما أشرنا إلى اهتمام الشاعر ببيان الأبعاد الخارجية لشخصه وقد تجلّت في أكثر من نص في ديوانه ولا نبالغ إذا قلنا إن ديوانه قد بُني في أغلبه على هذه الرؤية، فرد تلك الشخصيات بشكل جماعي يروي من خلال ذلك حكاية حبه وولعه المفعم بالمشاعر الفياضة، حكايات نسوة دافقة بالصور الأنثوية المعبرة، نجح الشاعر وذهب بعيداً بصفته راوياً عليمًا بالحكايات التي نسجها ورسم ملامح بنائها عندما قدم شخوص حكاياته المتمثلة بالحبيبة العطشى للقاءه وصوحيباتها اللاتي ينشدن الدهشة والمتعة من وراء هذه لقاءات.

أصرّ الشاعر على أن يكون هو الشخصية الفاعلة في بناء نصه؛ فالشاعر يتحدث باسم بطلة الحكاية ويتطرق إلى معاناتها فيما يحيط بها من عدو يلاحق أنفاسها ويحسب عليها خطواتها، فكان متداخلاً في العمل بشكل واضح؛ فارتبطت شخصيته بتلك الشخصيات المتمثلة بالمحوبة وصوحيباتها فكانت العلاقة أحياناً قمة في الإيجابية ونراها أحياناً متوترة حينما تختلط طبيعة العلاقة بين الحب والكراهة ولكن في الأعم ساءت العلاقة الإيجابية، لأن الشاعر بصفته المرسل لتلك الحكايات، كان يدرك جيداً أهمية ذلك الحوار الذي قام به بين البطلة وصوحيباتها، ونجاحهن في اتمام الصفقة اللقاء ومجازفتهم في حمايتها وحمايته في الوقت نفسه.

من هنا كانت قصائده موضوعية وصفية تحمل من التعقيد شيئاً كثيراً، ذلك في ضوء اعتماده على تعدد الأصوات وفي الوقت نفسه استعمال الحكي فضلاً عن إيماءاته الرمزية العديدة، محور

منجزه الشعري المرأة والقصيدة نمت ممثلة بيئة ارتبطت بالتحول في مفهومات بناء الدولة الإسلامية عند النشأة؛ شاعرنا غير معني بالأمر السياسي، غارق في الهم الذاتي، فطبيعة حياته فرضت هذا النمط الشعري من دون أن يفي ذلك له أنه خرج عن تقليدية الموروث الذي ألفته الذائقة العربية؛ فكانت قصائده تحمل في طياتها رومانسية اللفظة وبساطة اللغة، وبحسب حميم عن المرأة في ظل توهم عاطفي.

استحوذت الحكاية على تلايب البناء الفني للقصيدة مما يقربه من الصورة المبتغاة حتى يتلاحم بها مكوناً منها صوراً مادتها البيئة الحجازية ومضمونها صدق المعاناة الوجدانية وانصهارها في بوتقة حكاياته مع من يُحب، فجاءت حكاياته أكثر تنامياً وتوافقاً مع تطور الشاعر في بناء النص لاسيما وقد اختط لنفسه طريقاً يخالف فيه كثيراً من مجاليه وهناك أكثر من دليل على ذلك، ظلت المرأة تمسك بخيط يمتد بشكل متواشج في كل حكاياته وعدّها موضوعاته الأثيرة معترفاً بذلك، فطابعه الحسي المقترن بتصوير هواجس تلك النسوة الغارقات في العشق وصورة اللهفة للقاءات الحميمة معتمداً حيثيات المكان لتأكيد العلاقة بينه وبينهن، ليقدّم صورة أقرب للواقعية منها للخيال وقد يتدخل الخيال ليمنح في ضوئه الشيء المعنوي صورة حسية تذكرنا بمدى قلق الشاعر في رسم مسار تلك الحكايات وبنائها.

عاش الشاعر عاشقاً، وظل طيلة حياته يعبر عن عنوان حياته اللاهية ويحاول في الوقت نفسه أن يرسل للمتلقى رسائل كي يدرك ويفهم بواعثه بغية تحقيق حلمه، تتجلى حكاياته عبر ذلك الصراع المتأزم بنفس عاطفي ورغبة في التملك، وقد انعكس ذلك في نصه المتماهي أحياناً مع صور العاشق الجاهلي في حوارته وغربته، كان الزمن يمثل قطب تلك الرغبة الجامحة عند الشاعر فتدور عند مخيلته خواطر يرسم في ضوئها ملامح تلك اللقاءات وما ينتظره، وقد ألح الشاعر على بيان أثر الزمن وصروفه بتأمل السليم الذي يحلم بالشفاء، أفصح عن تطلعاته وآماله في تلك اللقاءات، كان يصور لهفة الآخر ليقدم لنا قصائد تتجلى فيها الحكاية.

نلاحظ على الشاعر كثرة الأسئلة، وهي أسئلة العارف، يطلقها ليجيب في الوقت نفسه، شاغلاً المتلقي المتلهف الملم بالصورة التي سيؤول فيها الحوار وإلى أي مدى، إن هذا الأداء البطيء في الإيقاع له ما يسوغه في بناء النص، لأنه لاشك في تصوير مشاعر الشاعر/ الراوي، وقد اتكأ على أفعال، وواضح لأي دارس أهمية ديناميكية الفعل الذي يتقطع مع سكوت الجملة الاسمية، كان وصفيّاً في بنائه.

استعمل في كثير من قصائده لغة سردية تعتمد الحكاية لبناء مجازاته التي تُعَدُّ الزاد الحقيقي لبنائه اللغوي الشعري، فلجأ في بناء قصائده معتمداً العناصر التي تشكل جوهر القصيدة الغزلية في العصر الأموي لاسيما الجانب الموسيقي وقد اتكأ على بحور انمازت بالبحور السهلة الغناء⁽²²⁾، معتمداً في الوقت نفسه عناصر السرد، فضلاً عن اتكائه على رسم صور اتخذت من التفاصيل اليومية لمغامراته التي يدعيها منهجاً لها، "فالحكاية التفسيرية تلعب دوراً كبيراً في رسم الصورة"⁽²³⁾.

ولابد لنا هنا أن نتساءل ونحن ندرس شاعراً كبيراً مثل عمر بن أبي ربيعة عن مغزى لجونه إلى اعتماد لغة السرد وسيلة للوصول إلى القارئ، ماذا أراد من ذلك، وما الذي دفعه إلى اعتماد هذا المنهج في بناء نصه، أسئلة كثيرة تدور في مخيلة الباحث وراء حقيقة النص الذي كتبه ابن أبي ربيعة، لاشك في أنّ ميله إلى استعمال السرد وتقنياته ربما يرتبط برغبته للتعبير عن أفكاره بطريقة السرد والحكي، وهذا المنهج لا يخطئ أي متابع لبناء القصيدة العربية أنّ أغلب الشعراء اعتمدوا هذا الأسلوب في بناء نصوصهم، ولا نغالي إذا قلنا هو طريق سلكه الشاعر رغبة منه بالتجديد والتجريب في آن واحد، وترك بصمة واضحة المعالم لرؤيته في بناء النص باعتماد الحكاية.

تستمد قصيدته معالم ألحها الفني والجمال من خلال عوامل عديدة تتمثل بلغة ثرية ينماز الشاعر بها عن غيره من مجاليه والتي استثمر فيها قدرتها على الانزياح وببساطتها الممتنعة في استعمال تقنيات السرد، فضلاً عن ما اتضح من امتلاكه لعاطفة جياشة تقف خلف كل صورة رسمها وقد تجلت بشكل واضح في السرد والحوار في نصه ولا جرم في ذلك في تصويره لعاطفة جياشة ملؤها الحب والحنين

على الرغم من إدعائه أو تصنعه القدرة على أنه المطلوب عشقاً، وهناك من يذوب في أذياله عشقاً، هكذا يحاول أن يوهم المتلقي، بصورة التي جسدها في ديوانه .

خضعت قصائد الشاعر لبناء معين ترك بصمة واضحة لمدى تماسك تلك القصائد، فقد خضع بناؤه الشعري لمستوى دلالي يمكن المتلقي من أن يدرك مدى تماسك قصائده بمضمون واحد وأن جاءت متألّفة الإيقاع والوزن، وقد اتخذ الشاعر شكلاً واحداً في بناء قصائده وقد تقاطع هنا مع ما عرف عن القصيدة في شعر ما قبل الإسلام من أنها كانت تنماز بالطول وتعدد الوحدات التي يتجسد من خلالها بناء النص، فكان نصه بسيطاً يتناول موضوعاً واحدة يجسد من خلالها دفق أحاسيسه وقوة مشاعره، على الرغم من أن هذه البساطة لا تعني أن عمق القصيدة لم يكن يحمل همّاً إنسانياً وجهداً فنياً واضحاً.

يدرك الباحث جيداً أن هنالك يوناً شاسعاً بين قوة المبنى للقصيدة في عصر ما قبل الإسلام وهذه الثيمة أشار لها النقاد العرب القدامى، وتوقفوا عندها طويلاً، قد تكون البساطة قد غلبت عليه أخذت مداها وشكلت تجلياً من تجليات حضوره، فرسم ملامح رؤيه فنية جديدة تعبر عن صدق الشاعر في نصه، معبراً عن أفكاره وأحاسيسه ودفق عاطفته، بغية الوصول إلى ما يروم .

ما قام به ابن أبي ربيعة فارس الغزل العذري، وركوبه موجة بناء النص الشعري الذي، يتسلل إلى شغاف قلب المتلقي، ضمن المسار السردى للنص، جزءاً مهماً وفاعلاً عندما يتفاعل مع ذلك الحوار الذي يشغل الشاعر فيه متلقيه، وفي ذلك الغاء واضح لتلك العقبات الشكلية التي يصنعها بعض الشعراء حاجزاً يقف بينهم وبين مكاشفة المتلقي عن قوة الأفكار والعواطف التي تختلج في نفس الشاعر، صورة واضحة المعالم عن مدى أرقه ووجوده.

من هنا اتخذ الشاعر مساراً بسيطاً في بنائه الشعري لايمنه بأنه الطريقة المثلى لا يصلح ما يؤمن به للمتلقي، وجدنا الشاعر يبتعد كثيراً عن الطللية التي ألقتها ثقافة بناء القصيدة العربية، وتغنت بها، ايماناً منه بأن الوقوف عند الأطلال لا يتناسب مع ما يتحدث فيه، فالشاعر يعيش لحظات العشق وانتظار اللقاء فليس في حاجة للوقوف على الأطلال وتذكر الراحلين، يدرك في الوقت نفسه أنه يحمل مضامين الوجد، الذي نقصد به، وجع الاغتراب في المكان، تحققت الشعرية في بنائه من دون الرجوع إلى الموروث الثقافي للقصيدة العربية، وهذا يحسب له لا عليه، جاءت قصائده تسير على وفق رؤية واضحة الانسجام والاتساق والتماسك، فضلاً عن وحدة الموضوع التي لا زمت ابن أبي ربيعة في قصائده.

تجلت الحكاية على وفق رؤية عاطفية ؛ فالشاعر يصور ولع تلك النسوة به، ونلاحظ أنها تعد موضوعه الأثير الذي يتردد في جميع قصائده، ذلك الولع النسوي بشخصه، تلك النرجسية العالية، والشغف بالمرأة، ومثلما أشرنا أنه يرسم ملامح شخصيات الحوار في النص، معبرة عن قوة اندفاعه النفسي وتصوير لميثولوجيا الواقع المعيش، فالشاعر مدار البحث، بعيد كل البعد عن الصراع الدائر في زمنه وهموم الإنسان وجوعه والأمة واضطهاده من قبل الآخر، ابن أبي ربيعة ليس معنياً بذلك، ظل أسير لوحة الذات المتأرجحة بين اليأس في اللقاء والأمل الموعود، لذلك انصب جلّ همه على الغزل بالمرأة، ولا هم له غيرها .

يمثل الشاعر عمر ابن أبي ربيعة نقلة نوعية في بناء النص الشعري العربي من حيث البناء الشعري، فلنجرته خصوصية انماز بها من غيره من مجابليه، وقد هيمن على بناء النص الشعري الحوار، فقد انتقل الشاعر بالقصيدة العربية من طليتها المعروفة إلى فضاء جديد ينماز بالوحدة الموضوعية وظل محافظاً على الغنائية التي ألقتها الأذن العربية، فضلاً عن ما انماز به من نفس سردي، تجلّت فيه أساليب السرد ومكوناته بشكل واضح .

أضحت الرؤية السردية في شعره معياراً للتكوين البنائي للحكاية في الأدب العربي بصفتها جنساً أدبياً تلاقح مع أجناس أخرى مستثمراً عناصر السرد وتقنياته ليقدّم للمتلقي منجزاً ثقافياً ليس فيه إخلال في بنية النص من الناحية الفنية " ولا عجب أن يحتوي الشعر على عنصر قصصي يتخذه الشاعر مجالاً لتجربته، وهو فيه أبعد ما يكون عن الخضوع لقواعد القصة في مفهومها الحديث" (24).

شكلت الحكاية التي جاءت على وفق تقنيات السرد بأشكالها المتعددة محورا أساسيا في بناء النص الشعري لابن أبي ربيعة ؛ لايصال معاناته للمتلقي، إنَّ اتكائه على الحكاية واستعمالها في بناء النص الشعري أفاد الشاعر إفادة كبيرة في الوصول إلى المتلقي، فضلا عن ما تركت من أثر واضح في تقوية بناء القصيدة وعززت من مستوى بنائها في الجوانب الفنية دلالة وتركيبا وإيقاعا.

ثمار البحث

استحوذت الحكاية على تلاييب البناء الفني للقصيدة مما يقربه من الصورة المبتغاة حتى يتلاحم بها مكوناً منها صوراً مادتها البيئية الحجازية ومضمونها صدق المعاناة الوجدانية وانصهارها في بوتقة حكاياته مع من يُحب، فجاءت حكاياته أكثر تنامياً وتوافقاً مع تطوّر الشّاعر في بناء النصّ لاسيّما وقد اختط لنفسه طريقاً يخالف فيه كثيراً من مجاليه وهناك أكثر من دليل على ذلك اتخذ الشّاعر مساراً بسيطاً في بنائه الشّعريّ لإيمانه بأنّه الطريقة المثلى لإيصال ما يؤمن به للمتلقّي، وجدنا الشّاعر يبتعد كثيراً عن الطللية التي ألّفها ثقافة بناء القصيدة العربيّة، وتغنّت بها، إيماناً منه بأنّ الوقوف عند الأطلال لا يتناسب مع ما يحدث فيه، فالشّاعر يعيش لحظات العشق وانتظار اللقاء فليس في حاجة للوقوف على الأطلال وتذكر الراحلين، يدرك في الوقت نفسه أنّه يحمل مضامين الوجد، الذي تقصد به، وجع الاغتراب في المكان، تحققت الشّعريّة في بنائه من دون الرجوع إلى الموروث الثقافي للقصيدة العربيّة، وهذا يحسب له لا عليه، جاءت قصائده تسير على وفق رؤية واضحة الانسجام والاتساق والتماسك، فضلاً عن وحدة الموضوع التي لا زمت ابن أبي ربيعة في قصائده.

تجلّت الحكاية على وفق رؤية عاطفيّة؛ فالشّاعر يصور ولع تلك النسوة به، ونلاحظ أنّها تعد موضوعه الأثير الذي يتردد في جميع قصائده، ذلك الولع التّسويّ بشخصه، تلك النرجسية العالية، والشغف بالمرأة، ومثلما أشرنا أنّه يرسم ملامح شخصيات الحوار في النصّ، معبرة عن قوّة اندفاعه النفسيّ وتصوير لميثولوجيا الواقع المعيش، فالشّاعر مدار البحث، بعيد كلّ البعد عن الصراع الدائر في زمنه وهموم الإنسان وجوعه والأمله واضطهاده من قبل الآخر، ابن أبي ربيعة ليس معنياً بذلك، ظلّ أسير لوحة الذات المتأرجحة بين اليأس في اللقاء والأمل الموعود، لذلك انصبّ جلّ همّه على الغزل بالمرأة، ولا هم له غيرها.

عاش الشّاعر عاشقاً، وظلّ طيلة حياته يعبر عن عنوان حياته اللاهية ويحاول في الوقت نفسه أن يرسل للمتلقّي رسائل كي يدرك ويفهم بواعثه بغية تحقيق حلمه، تتجلى حكاياته عبر ذلك الصراع المتأزم بنفس عاطفي ورغبة في التملك، وقد انعكس ذلك في نصه المتماهي أحياناً مع صور العاشق الجاهلي في حوارته وغربته، كان الزمن يمثل قطب تلك الرغبة الجامحة عند الشّاعر فتدور عند مخيلته خواطر يرسم في ضوئها ملامح تلك اللقاءات وما ينتظره، وقد ألح الشّاعر على بيان أثر الزمن وصروفه بتأمل السّليم الذي يحلم بالشّفاء، افصح عن تطلّعاته وآماله في تلك اللقاءات، كان يصور لهفة الآخر ليقدم لنا قصائد تتجلى فيها الحكاية.

يمثل الشّاعر عمر ابن أبي ربيعة نقلة نوعية في بناء النصّ الشّعريّ العربيّ من حيث البناء الشّعريّ، فلنجرّبه خصوصية انماز بها من غيره من مجاليه، وقد هيمن على بناء النصّ الشّعريّ الحواريّ، فقد انتقل الشّاعر بالقصيدة العربيّة من طليّتها المعروفة إلى فضاء جديد ينماز بالوحدة الموضوعية وظلّ محافظاً على الغنائية التي ألّفها الأذن العربيّة، فضلاً عن ما انماز به من نفس سرديّ، تجلّت فيه أساليب السرد ومكوناته بشكلٍ واضح.

هوامش البحث ومصادره:

- (1) هو عمر بن أبي عبد الله بن أبي ربيعة ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر مخزوم بن بقطه بن مرة القرشي، كان يكنى أبا الخطاب، ولد سنة: 23هـ، وكان تاريخ ولادته السبب في تسميته عمر؛ إذ إنه ولد الليلة نفسها التي توفي الله بها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، أمير المؤمنين، وذلك ليلة الأربعاء لأربع بقيت من ذي الحجة. وكان الحسن البصري يقول فيها: أي حق رفع وأي باطل وضع؟ يعني مقتل عمر ووضع عمر. توفي سنة 93هـ؛ في هذا التاريخ كان يغزو في البحر في مدينة دهلك فمات فيها أي في الغزو حرقاً أو غرقاً بعد حرق سفينته. ينظر ديوان عمر ابن أبي ربيعة، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه، د فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2008م، 7، وما يليها والأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: "الأغاني"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 2004م، 1/62 وما يليها، و ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1966م: 216 والبغدادي، عبد القادر بن عمر: "خزانة الأدب"، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1986م، 1/240.
- (2) المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (ت 384هـ): "الموشح"، تحقيق على محمد الجاوي، نهضة مصر، القاهرة، مصر، (د:ط)، (د:ت)، 260، الأغاني، للأصفهاني 38/1.
- (3) الأغاني، للأصفهاني 134/2.
- (4) غريب، جورج: "الغزل تاريخه وأعلامه" دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د:ط)، (د:ت)، 130.
- (5) ينظر غريب، جورج: الغزل تاريخه وأعلامه، 173.
- (6) ينظر خاطوم، عفيف نايف: "الغزل في العصر الأموي"، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 2008م، 91 وما يليها.
- (7) ديوان عمر ابن أبي ربيعة: 13. مقال للدكتور طه حسين نشر في جريدة السياسة في 10 ديسمبر سنة 1924م.
- (8) المصدر نفسه: 33، 34.
- (9) المصدر نفسه: 37، 38.
- (10) المصدر نفسه 342، 343.
- (11) المصدر نفسه: 122 وما يليها.
- (12) ينظر المطليبي، عبد الجبار: "مواقف في الأدب والنقد"، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، 1980م، 181.
- (13) الشعر والشعراء، لابن قتيبة: 405/1، والأغاني، للأصفهاني 6/21، والمرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت 421هـ): "شرح ديوان الحماسة لأبي تمام"، علق عليه وكتب حواشيه، غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، وينظر دواوين صغيرة/ ديوان الحارث بن حذرة، حققه هاشم الطعان، مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق، 1969م، 1/371.
- (14) الشعر والشعراء، لابن قتيبة: 405/1 وما يليها.
- (15) ينظر الغزل في العصر الأموي، عفيف نايف خاطوم، 118.
- (16) ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها، وينظر جبور، جبرائيل: "عمر ابن أبي ربيعة"، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1981م، 488 وما يليها.
- (17) ديوان الشاعر عمر ابن أبي ربيعة: 344، 345.
- (18) القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: "العمدة في محاسن الشعر، وأدابه، ونقده"، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط5، 1981م: 63/1.
- (19) ينظر لفته، ضياء غني، وعود كاظم: "سردية النص الأدبي" دار الحامد للنشر، بغداد، العراق، 2011م، 64.
- (20) صحراوي، إبراهيم: "السرد العربي القديم"، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2008م، 188.
- (21) ديوان عمر ابن أبي ربيعة: 319.
- (22) ينظر غريب، جورج: الغزل تاريخه وأعلامه، 129.
- (23) إبراهيم، عبد الله: "موسوعة السرد العربي"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2005م، 79.
- (24) هلال، محمد: (دراسات ونماذج من مذاهب الشعر ونقده)، القاهرة، مصر، دار نهضة مصر، 1960، 59.

المصادر والمراجع

1. إبراهيم، عبد الله: "موسوعة السرد العربي"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2005م.
2. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: "الأغاني"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 2004م.
3. البغدادي، عبد القادر بن عمر: "خزانة الأدب"، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1986م.
4. جبور، جبرائيل: "عمر ابن أبي ربيعة"، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1981م.
5. حاطوم، عفيف نايف: "الغزل في العصر الأموي"، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 2008م.
6. دواوين صغيرة/ ديوان الحارث بن حنظلة، حققه هاشم الطعان، مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق، 1969م.
7. ديوان عمر ابن أبي ربيعة، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه، د فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2008م.
8. صحراوي، إبراهيم: "السرد العربي القديم"، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2008م.
9. غريب، جورج: "الغزل تاريخه وأعلامه" دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د:ط) (د:ت) .

10. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1966م.
11. الفيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: "العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده"، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، 5ط.
12. لفته، ضياء غني، وعواد كاظم: "سرديّة النص الأدبي" دار الحامد للنشر، بغداد، العراق، 2011م.
13. المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (ت 384هـ): "الموشح"، تحقيق على محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة، مصر، (د:ط)، (د:ت).
14. المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت 421هـ): "شرح ديوان الحماسة لأبي تمام"، علق عليه وكتب حواشيه، غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
15. المطلبي، عبد الجبار: "مواقف في الأدب والنقد"، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، 1980م.
16. هلال، محمد: (دراسات ونماذج من مذاهب الشعر ونقده)، القاهرة، مصر، دار نهضة مصر، 1960م.